أما المؤلفات في وجوه القرآن، كما شاعت تسميتها، فقد اكتسبت في بعض الأحيان صبغة لغوية لم يتعمق فيها، واكتسب أواخرها طابع التقليد والنقل الخالصين فخلت من الجديد، سواءً في المادة المنصب عليها الجمع أو في منهج التفسير، وانحسرت على هذا النحو حتى عادت فصلاً من فصول كتب علوم القرآن مثل الإتقان والبرهان، وذلك كما بدأت فرعًا على التفسير.

وقد جاء هذا الانحسار مناقضًا ـ في تصورنا ـ لما توحي به طبيعة الموضوع من قابلية لإثارة التساؤل والبحث اللغوي الدلالي المرتبط بسياقات القرآن التي وردت فيها هذه الألفاظ. والملاحظ أن المحاولات المتعددة لإدخال هذا البحث في آفاق الدراسة اللغوية، لم تسفر عن أكثر من الكتاب الأول في كل محاولة[1].

في هذه السلسلة من المؤلفات الممتدة على طول أكثر من عشرة قرون من الزمان لا نجد كثيراً من المؤلفين عني بوضع مصطلح لهذا العلم أو بتحديد نطاق بحثه، أو بالتفرقة النظرية بين دلالات الكلمات التي تتردد فيه كثيراً من أمثال «الوجوه ـ الأشباه ـ النظائر».

وقد كان أول تعريف ـ وقعنا عليه ـ لمصطلح هذا العلم في كتاب ابن الجوزي، «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر»[2] ويرجع إلى القرن السادس، أي بعد أربعة قرون من أول تأليف وصلنا في الموضوع.

وفيه يقول ابن الجوزي[3]:

«معنى الوجوه والنظائر: أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن، على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر.

فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع، نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر. وتفسير كل كلمة بمعنى غير المعنى الآخر هو الوجوه. فإذن النظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر».

---

(١) فكتاب الحكيم الترمذي لم يتبع بآخر لا في الاتجاه نفسه ولا في الرد عليه، ومحاولة ابن الجوزي لم يتوسع فيها ومن بعد كل منهما عاد الأمر إلى ما كان عليه في منهج المؤلف الأول مقاتل بن سليمان.

(٢) اسم الكتاب يدل على نظرة المؤلف للموضوع بوصفه علمًا، وقد كان عمله محاولةً في هذا الطريق، فهو أول كتاب ذي مقدمة فيها شرح لطبيعة الموضوع وهدف التأليف فيه، وتعريف باصطلاحه، وذكر لعمل سابقيه ونقد لهم، وتحديد لعمل المؤلف وخطته الثابتة التي اتبعها في فصول الكتاب جميعًا، جاعلاً بين يدي تفسير كل لفظة مقدمة عن معناها واستعمالاتها عند العرب.

(٣) نزهة الأعين ص ٨٣.